المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى
مكة المكرمة

٩٠٠٠٠٠٢٨

بحوث

المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين

المنعقد في مكة المكرمة في المدة

٥ ـ ٧ شعبان ١٤١٩ هـ

الجزء الرابع

١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م

٩٠٠٠٠٢٨-٤

حمزة شحاتة.. الأديب المفكر . !

عبد الفتاح أبو مدين

حمزة شحاته .. الأديب المفكر !

عبد الفتاح أبو مدين

الجدود في هذه الحيـاة أخياف ، فمن الناس ... من تبسم له الحياة ، فيكون نصيبه منها موفورا متـرعا ، ينعم بما ينال .. ولو بدون عناء وكد ، فقد أتيح له ما لم يتح للكثير أمثالـه، وربما كانوا .. أكثرا سعيا فيها ، وأكثر انشغالا بها، ومع ذلك .. فإن نصيبهم منها ضيّق محـدود ، لا يكاد يحقق لهم شيئا من مطالب الحياة ، على حين ينعم غـيرهـم بالحظ الوفـير عطاء وشـهرة ورغد عـيش . إذن فالسـعي والكدح ليسا مقياس نيل الرزق .. ولا معطيات تعين على هموم الزمان وعنائه وشجونه .

غير أن الإنسان مطالب أن يكدح وأن يسـعى ويعمل .. ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وليس علـيه أن يبلغ ما يريد ، أو قل ما يكافئ جهده وسـعيه ، وأن عليه أن يرضى بما قسـم له .. إذا كـان قانعا ، أو أن يشكو ويجـأر بالغبن الذي حل به ، ولم يستطع أن يغيّر منه شيئـا ، وأن الحرمان الذي حل به ، ليس بد من أن يرفضه ، لأنه يرى أنه حقـيق بشيء غير قليل ، ليس لقـاء طموحه وتطلعاتـه نفـسه ، وانما لأنه ذو إباء وشمم ، وأن له ميزة أو أكثر ، ينبـغي في رأيه .. وربما عند غيره ، أن يتاح له ما أتيح للكثـيـرين من ذوي الحظوظ ، وعلى الأقل .. لقاء نبـوغه وتميـزه بعقله ، وهو مدرك لما أعلنه أبو الطيب أن « ذو العقل يشقـى بالنعيم بعقله » ، فكيف به إذا كان في شقاء وحرمان وضنك وعسر لا حدود له ؟

ذلك هو الشقاء العقلي الذي يتلبّس بعض النفوس الطموح ، حين لا تنال من دنياها أيسر سبل الحياة الكريمة ، وتـأبى عليها كبرياؤها .. أن تصمت، وأن تذل ، لأن الذّل إذلال للنفس التي لا تلين قناها .. مهمـا اشتدت بها الخطوب ، وضاقت

بها الحيـاة ، لأنهـا تدرك .. أن من يحسـد الذليل بعيش يصبح ذليلا ، وربما أدنى من ذلك ، لأن الله كـرم الإنسان ، وقد خلقـه في أحسن تقـويم . فلماذا يذل لغـير خالقه .. الذي كفل له رزقه ما دام حيا ، وبيده أجل ممن خلق ؟

لست أريد أن أمـضي في هذه المقدمـة طويلا ، وإن كـانت الحال تدعـو إلى شيء من التأمل .. لاسيما حينما يكون الحديث عن رجل ذي طموح .. وفيه إرادة القوة ، لأن فيـه شبها من الشـاعر الطموح المتنبي ، الرجل المفتـون بالقوة .. وبإرادة القوة، ومن أجل ذلك دخل التاريخ ، وليس بالغضب كما يقول الشاعر نزار قباني، والذي يدين بمبـدأ القـوة ، ولا يعني أنهـا الطيش والحـمق والاندفـاع والجـهل ، بل الاتجاه إلى أقوم الـسبل .. لتحقيق الـهدف البعيد . وقـالوا أن « إرادة القوة ... هي المجد الهادي إلى كل خلق نبيل ، والنافي إلى كل خلق وضيع ذليل » [1] .

ويقول الدكـتور محـمد عبـدالرحمن شعـيب : المتنبي يقرر مـذهب القوة .. ويؤمن به ، ويدعو إليـه ، ولكنها القوة الهـادفة التي تفرض الخيـر في طبيعة البـشر، وتفرض فيهـم القدرة .. على الوصول إلى الكمال » [2].

إن هذه الورقة التي أتقـدم بها إلى مؤتمر الأدباء السعـوديين الثاني ، رأيت أن يكون ضيفها .. رجل فيه شيء من طموح المتنبي وقوة إرادته وإيثار القوة ، ومجافاة الضعف والاستكانة ، لأن القـوة عند ذوي الطموح حياة .. ولو كـان المتصف بها ليس له من الأمر شيء ، وليس له نصيب من زاد الحياة وزخرفها وينعها ، يكفيه .. أن يصحّ منه العـزم ، ذلك أنه لا يمـلك حظه الذي يحـقق له بعد القيـمة .. مع أنه يملك القدرة ، والعَـرَض لا ينال بالطموح وحـده ، ولا حتى بالسـعي ، لأن موازين العطاء عند الذي يفـضّل بعض الناس فـي الرزق ، واهب الملك ومـانعه ، لأن بيـده

---

(١) مطالعات العقاد ، ص ١٦٥ .

(٢) المتنبي بين ناقديه ، ص ٤٠٦ .

ملكوت كل شيء . والذي يطمح ولا ينال ما يتطلع إليه .. وهو ذو قدرة وإرادة لا يفلها الحديد ، يصاب بالإحباط ، ويدركه السأم .. فيعتزل الناس وينأى ، راضيا أو ساخطا ، فالحال واحدة .

أنا في هذه الوريقات القليلات .. مع شاعر وناثر ، بارع في الفنين ، كما قلت آنفا ، بل إني أريد أن أؤكد أنه ليس بشاعر وناثر فحسب ؛ وإنما هو أديب مفكّر كذلك ، ذو نظر في العالم والأشياء من حوله ، تستغرقه ويستغرقها ، ثم تكون محصلة ذلك .. تلك النظرات العميقة التي نجدها في شعره وفي نثره . وهو ذو إرادة وقوة وإباء وعنف ، لا أمنحه هذه الخصال من تلقاء نفسي ، ولكنني أجد ذلك في الزاد الذي تركه ، وهو ليس كثيرا ، والكثرة عندي لا تعني القيمة ، إلا إذا كانت ذات قيمة ، والقلة ليست نقصا ، وإنما ميزان القسطاس .. هو الذي يحدد القيمة للشيء ، وحمزة شحاته .. كان قيمة وأدبه ذو قيمة في نثره وشعره ، أدرك ببصيرته وعبقريته ، أن الخلق لا يبني ولا يمثل رجولة قوية . وإنما الرجولة .. هي التي تصوّر الخلق ، لأنها تتصف به ، وتتخذه وشاحا وسلاحا ، من قدرتها وإرادتها . وخلق بلا إرادة وأيدٍ لا يحقق شيئا ، ولا يحقق رجولة بمعناها الطموح ، فالعزة قدرة وقوة ونتاج وعزم وحزم. ولذلك نقرأ في الوصف النبوي : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف » وحين نقرأ بقية الحديث ـ وفي الكل خير ـ فإن تفسيره عندي ، أن الخيرية في الضعيف ترجع إلى إيمانه . ولذلك تقدم عليه ذو القوة المؤمن .

إن محاضرة أديبنا الكبير وشاعرنا التي ألقاها في جمعية الإسعاف .. في ذلك الوقت المبكر ، استغرق إلقاؤها أربع ساعات ، قال عنها بعض حاضريها.. إن من حضرها ظل في مكانه لا يريم ، منصتا ومتابعا ذلك البيان البليغ الذي اتصف به، وذلك التحليق القوي .. الذي أبهر المستمعين ، لأن المتحدث رجل أحكم زمام موضوعه .. الذي اختار ، فجاء إلقاؤه وأداؤه آيتين فصاحة وبلاغة وبيانا مبينا ،

وهـذه القـدرة لا نجـدها عند كل متـحـدث ، ولا عند كل شـاعـر ، لأن التـفـوق والتميز .. اختص الله بهما أنماطا من البشر قـلائل، وحمزة شحاته من أولئك القلة في عالمنا العربي ، كـما شهد له بذلك أقرانه وعارفـوه ، والذين خالطوه ، وأدركوا قدراته .. متحدثا وخطيبا وشاعرا ، وهو إن لم تكن قصائده طوالا ، إلا أنه مجيد ، وقلما تجـد في هذه القصـائد ضعفـا ، لأن الشاعر أشبه بالجـوهري .. الذي يعرف كيف يختـار لآليـه وأسـماطه ، ويتقن صناعـته ، لأنه ماهـر .. صنّاعة . ! إنه رجل يعرف كـيف يختار لآلئ ألفـاظه والمعاني القوية ، بعـيداً عن الإسفـاف والابتذال ، لأنه شاعـر وأديب يحترم نفـسه ، بعيـدا عن السبـاقات الرخيـصة . وليس المناخ .. الذي يرتقي فيه الشاعر ، وإنما الفن الرفيع .. الذي يتصف به ذو الرأي والحجاج .. الذي يتـصدر الحـوار ، هو الصفـة التي ينشدها البـاحثـون عن المتعـة والجمـال عند المفكرين . وحمزة شحاتة .. ليس أديبا عاديا ، وإنما هو مفكر بعيد الرؤى .

إن الأدب بعامة ليس ألفـاظا لا حياة فيها ، فهـذا ليس من الجمال في شيء ، وإنمـا الأدب إشراقـة بيان ، وسمو معـانٍ ، وتموج ديباجة ، وجمال نسيج ؛ وبذلك يكون رائعـاً ومؤثرًا وجـمـيلاً . والأدب الحي النابض الـقوي .. هو الذي يبـقى مع الزمن ، تتداوله الأجيال ، وتتجدد معانيه من خلال الدرس والتفكيك ، لاستجلاء معانيـه وأسماطه ، لأنه من الحياة وفـيه حياة لمن يعيـشون الحياة ، ليروا فـيه ويجدوا معاني البقـاء ، لأنه قيـمة وذو قيمة ، وأثر لا يواريه الزمـن ، وإنما يزيده قيمة بالدرس والبـحث ودقـة التأمل ، كـمـا هي حال الآداب المتـجددة الـقوية ، التي لا تطويهـا الأيام . !

وبعـــد :

فلعلي استنفـدت من خـلال هذه المقـدمة ... التي أخـشى طولهـا ، لعلي قضيت أربي فيمـا أريد كتمهيد لما بعده ، وهو ملامسة هذا الزاد الوافـر في قيمته ، وليس كمـه ، لأن ا لعبرة ليـست بالكثرة ، وإنما بالقـيمة . وقـد درجت في مطالعة بعض قصائد الديوان ... عبر ما جاء في تـلك الصفحات التي صدرت قبل عام .. بعنوان : حمزة شحاتة .. ظلمه عصـره » . واليوم أستأنف الحديث مجـددا ، بـدءاً من ص (٤١) ، حيث تطالعنـي قصـيـدة .. عنوانها « وداع » . وهذا العنوان ينبئ عـما وراءه ، والوداع شكوى ممضـة ، لأن المفارق غـال ، وقد يكون ذا اعـتسـاف وشطط على مـن فـارق ، وهو المحب ذو الجناح المهـيض ، وسـنرى .. حين نتـدرج لنقرأ مـا خطه الشاعر .. وهو يشكو ويلح فـي الشكوى ، لأنه لا يملك إلا أن يجأر بما حلّ به من كـرب وبلاء ، ولكن لمن يشكو ؟ . أكـبـر الظن أن أقرب صـديق .. مصاحب للأديب وغيـره في الحياة ، وهو سمير ، قد يـكون صامتا ، لكن الخطاب يستنطقـه ، فيكون حوار ، وربما شكوى متـبادلة ، فالليل يشكو من كثـرة الشاكين وآلامهم وحـالهم وذلهم وهزيمتهم وبؤسـهم ، والليل يؤاسي .. ما استطاع إلى ذلك سبيـلا ، فلعل وعسى ، أن يتحول العسـر إلى يسر ، والكرب إلى رخاء ! إنه أمل ، والأمل وشيجة الغادين في هذه الحياة المؤلمة الدامسة ، ولولاه لجفّ الزمان . والذي يودع يطمع ويرجـو .. وقد تحـولت حاله إلـى ما يكره ، والبـؤس حلّ محلّ الوفـاء والصفو وما يشـبه السعادة . والليل رفيق وملجـأ الحيارى ، وسمير يبثـونه شجوهم ونجواهم ، وها هو شاعـرنا .. يشكـو ، والألم تنداح منه دقة التعبيـر واتقان وتصوير الحـال .. وما يعـتـمل في النفس ، لأنه إفـراز شـجن وانصـهار نفس ، لـتعـرب عن لأوائها، كما ينتج من صهر الذهب حلى وجواهر .. يزين نحور الحسان والغواني . وصـدى الشكوى اختـلال عـدل ووفـاء ، وتغلب نفس عـلى نفس ، وقـوى على

أخرى . والنفس .. رغم أنها تنصهر بالحرمان وفقد ما يسعدها ، لكنها تقدم وصفا وتبراً من ذلك الصهر الدامي الملتهب ، ولولا الحرمان .. ما كان هذا النمط من اللفظ المصقول ، والمعنى المتوهج المتدفق . وها هو الشاعر في وداعه .. يهيم ، ويبوح بما يعتمل في النفس المكلومة ، عسى ... أن هذا البوح يخفف من لواعج القلب الجريح، وليس له خيار ، لأنه ليس له من الأمر شيء . قال :

وداع ، وهل لي أن أقول : إلى لُقى　　　وبعدٌ ، ومن لي أن أراه تمزقا ؟

يريد الشاعر أن يذهب البعد إلى غير رجعة وأن يعود القرب فيطفئ الشوق ، وتحل الهناءة ، إنها آمال شاعر .. تلبّسه الخوف والحنين والفراغ والأين .

وفرحة نفسي ، فارقتها ، وأدبرت　　　وكان بها روض المسرة مونقاً

أجلٍ ، فالفرح أصبح ما يشبه الترح ، حيث كان الأنس الأنيق ، والبهجة تملأ النفس .

ودنيا هوئ طلق يصيب به الهوى　　　طِلاب مناه ، كيفما شاء مطلقا

بلى ، عالم هوى ، ينال منه الهوى مراده ، كما يبتغي بلا قيد . ثم تغيرت الحال أو قل انقلبت :

أشاحت ، ولم ترعَ الذمام ، ولو رعت　　　لأبقت على قلبي الكليمِ ترفقا

هكذا دأب الحب ، وحال الغواني ، وأنّى لهن الذمام والإبقاء على الودّ ، فذلك يضعف التعلق فيفتر الحب ببلوغ الأرب والمنى !

فيا حسن ما أقسى احتكامك إن هفا　　　بك الزهو ، لم تحفِل لعانيك موثقا

ويا ليل سامرني على السهد والجوى　　　فما زلت ألقاك السَّمير الموفقا

وعد بي إلى الماضي القريب ، وإن غدا　　　بعيدا وإن أذكى الشعور مرهّقا

فقدت وإياك العزاء ، فمن لنا　　　به غير أن يشكو كلانا ويأرقا

إن قاموس شاعرنا اللغوي متين ، وإنه ليتأنق في اختيار ألفاظه كما يصنع الجوهري الماهر، وهو يوائم بين اللآلي، لأنها حلية، لا تبلغ هوى ذوات الحجال.. إلا إذا كانت رائعة الصناعة والاتقان ، جذابة متوهجة .

ورغم أني لم أرتح كثيرا إلى كلمة - الموفق - التي يصف بها الليل سميره .. في البيت الثاني من المقطع الثاني من هذه القصيدة ، إلا أن الشاعر الحائر ، علّه لم يجد يومئذ وصفًا لسميره إلا هذه الكلمة ... التي توائم القافية ، ولعل الشاعر وقد أصبح وحيدا ... تنبه إلى الليل وحيد مثله ، فألبسه وشاح الشوق والحنين ، ليكون مثله ، ويشتركا في الشكوى ، ويشكو أحدهما إلى صاحبه ، والليل طوال دهره وحيد ، وهو أنيس لمن تنبو به الحياة ويهجره الهوى ، والأدهى هو الذي يتلبسه السقم ، وإنه لابتلاء قاس ، إذ العيون نيام ، وهو يتلوى ألما ، ويرنو إلى النجم ، ويساهر الليل .. ويشكو إلى ربه أن يرحمه وأن يدفع عنه السوء .

والشاعر يخاطب الحسن ، ويصفه بأنه عنيف إذا جنح إلى الزهو والعجب ، حيث لا يبالي بمن تعلق به ، ولم يهتم به وهو في أغلاله لأنه أسير هوى . ويريد الشاعر من ا لليل أن يرجع به إلى ماضي أيامه القريبة ، والذي حوله الهجر إلى بعد، وحرّك كوامن النفس وألهب الشعور ، و زاد النفس رهقا . ولم يجد الشاعر والليل عزاء على مصاب كل منهما ، إذ أشرك الشاعر الليل في همه وجعله مثله مصابا بداء الوحدة والحرمان .. كما أشرت آنفا ، ولم يبق سوى الشكوى والأرق لكليهما .

ويمضي الشاعر في حديثه إلى الليل الصامت ، وما حاق به من حزن ، وهو يستعطفه .. أن يفضي بذلك الهوى المتدفق الذي يخفيه ، والشاعر في هذا الخطاب ، إلى أنيسه الليل ، ينشد السلوى.. وتخفيف الآلام ووطأة الهجر

والحرمان. ويناشد الليل ، لأنه شاهد ، ويتهمه بأنه كان يشارك الشاعر في هواه لحبيبه ، وكان أي الليل يفضي إليه بنجواه ، ويغار من الشاعر ومنجذب إلى الحبيب . وأن بدر الشاعر يفوق بدر الليل جمالاومرحا، وهو أكثر بهاء .. وجها ومفرق شعر.

حنانيك حدثني ، ولا تخف ما وشى   به صمتك الآسي هوى متدفقا
وقل : كنت أهواه هواك ، ألم تكن   تنافسه نجواك ، غيران شيّقا ؟
تنير به أفراحه ، وشجونه   وأعمق ما يخفى إذا هم واتقى
أما كان بدرا فاق بدرك بهجة   أما كان أسنى منه وجها ومفرقا
أباحته دنياه مفاتن حسنها   وحابته بالإعلاق فاختار وانتقى
روينا به يا ليل ، والدهر غافل   كريم دواعي النفس أعطى فاغدقا
تعزّ ، ولا تضننك ببعد أراده   فإن كان قد أظما فيا طالما سقى

جميل قول الشاعر ـ اباحته دنياه ـ ، ولم يقل تعبيراً عابراً ، وهبته أو أعطته ، ذلك أنه شاعر مجيد رائد وعبقري ، فالدنيا أباحت للحبيب الفاتن في جماله ، وخصته بالنفيس من كل شيء تهواه النفس ، فانتقى ما يلائم بهاءه وجماله . وتنهال خواطر الشاعر .. وهو يفضي إلى الليل في هذا النّجاء ، إنه ارتوى من حبيبه في غفلة من الزمن ، وذلك دأب الهوى والمحبين . وكان الحبيب سخي النفس لا يبخل على المحب ، فنال غدق الهوى ... كما أبيح له ، فالشاعر إذن يستجر الماضي .. ليأسو جراحه ،علّه يدركه شيء من سكينة مما هو فيه من كرب وشجو . ثم يعود ، وكأنه قد كان في حلم فأفاق ، ولم يكن حياله شيء مما كان يرى ويلمس ، فأدرك أن ليس معه إلا الليل .. في صمته ودجاه وطوله ، فأخذ

يعزّي نفسه ، ويقول لنفسه ... لا تدخلي في ضيق مما أنت فيه من الحرمان والهجر. والمتنبي يقول : « والهجر أقتل لي مما أصادف » . يتعزى الشاعر ... وهو يتخيل الماضي كأنه فلم يعرض أمامه ، فإذا كان الحبيب قد بعد باختياره ، وأدرك المحب الظمأ، فإنه طالما ارتوى.. من ذلك الإغداق الثر والشلال الدافق. إنه العزاء... في هذه الشكوى الملوعة ، وليس بدّ من التعايش مع الواقع ، وإن كان مؤلماً ومراً .! ونمضي مع أبيات القصيدة الشاكية ، في هذا التصوير الرائع ... من التصبر ، ومعاناة الحزن ، وما أصاب النفس من خسار ، وأن الحياة هكذا دأبها ، قلّب ، وحظ الإنسان فيها متغير ، والآمال لا تكون كلها سعادة وصفاء ، ولكن الكدر ينداح فيها .. بين حين وحين . غير أن الأمل يظل حلماً بالجميل من الآتي ، وتطلع إلى ما هو خير ، ويبقى الشك يرود النفس ويربكها ويضنيها . وهل يعود الغائب والبعيد، وتصفو للشاعر الأيام .. كما كانت الحال من قبل ، أم تبقى الآمال معلقة ؟ ويأخذ الشاعر الموجع .. يخاطب حبيبه ، يريده أن يعيد تدفق الصبوة .. يعروها همس ووشوشات ، كأنهما من متطلبات الصبوة وأدواتها ، وتلك طفرة انهيال الهوى .. وقت تدفقه ، من غير قيد ولا احتياط ، وهو الصفو .. الذي يدعو ابن زيدون إلى اغتنامه . في قوله :

واغتنم صفو الليالي ... إنما العيش اختلاس

* * *

ويا قلب إن يعصف بك الحزن فاتئد ... فكم ضاع مسعى للقلوب وأخفقا

وحظك من دنياك ما سنحت به ... فدونكه صفوا أتى أم مرنّقا

فقد تخلف الآمال سحب رويّة ... وتنجزها أخفى السحائب رونقا

فيا للغد المرجو هل أنت مقبل ... فألقاك بالآمال أم ليس ملتقى

وهل يدنى النائي ويصفو به الهوى ... كما كان ؟ أم يبقى الرجاء مُعلقا ؟

يخاطب الشاعر قلبه ويطلب إليه ألاّ يتعجل حين يعبث به الحزن ، فطبيعة القلوب أن تفشل في سعيها وتخفق ، وأن نصيبها في حياتها ما أتيح لها منها ، وعلى القلوب أن تغتنم حظوظها .. في صفائها وكدرها ، ومن طبع الآمال ألاّ تنال ما ترجو من سحائب ثرة ذات ريّ ، وتأتي أخرى .. ليست ذات كثافة ولكنها شبه عابرة ، ترى أنها غير مغرية ؛ ومع ذلك ترضى المتطلع إلى المزن ، فينال قدرا ذا بهاء .. وفيها عوض . وحال الشاعر القلقة ، تتساءل ، هل الغد المنتظر آت ، ويلاقيه الشاعر بآماله ، أم أن اللقاء غير متوقع ؛ لأن الآمال لا أمل فيها ؟ وبيت القصيد في الغد والأمل ، أن البعيد .. هل سيكون قريبا ، ويتحول الكدر إلى صفاء .. كما كان في غابر الأيام ، أم أن الأطماع ستظل معلقة .. إلى أجل غير مسمى . !

ويمضي خطاب الشاعر إلى حبيبه البعيد ، وكأنه أمامه يحاوره ، مجددا ما كان بينهما .. قبل البين ، ويذكره بما كان يقول ويؤكد حتى القسم .. أن شاعره يفوق القائلين ، إذا حلّق بخياله وفكره ، وهو معه متبرج الهوى ، يصوره حديث منمق ، ينساب خلسة ، خوف الرقيب ، أو خوف بطر الشاعر بهذه النعمة التي هو فيها ، والمحب يحب تلك النفثات الباهرة من شاعره .. التي تسري في دمه ، وفي فكره ، وإن كان ما يسمع من سحر يدخل في مقولة : أعذب الشعر أكذبه » ، وإن كانت المشاعر صادقة في خفقاتها . ومع ذلك فالشاعر في شك ، لأنه عرف الهوى وتقلباته .. وانهزام المحبين وفشلهم ، فهم أمام قوة تفوق قواهم وقدراتهم ، وبعضهم لا يملك إلا الكبرياء ، يستعين بها ، لكي يقاوم الذل والاخفاق . ! إنه صراع لا ينتهي . وفي موازين الشاعر ولداته .. أن وعود الحبيب وبره لا ترقى إلى حد التأكيد الذي يرضى العارفين بأهل الهوى وحالهم . ونرى الشاعر يستبعد

صدق صاحبه .. الذي يعتمد عليه ويعتد به ، كما أن الفن الحقيقي أصعب منالاً ، أي ليس كل من في الساحةُ من أهله الذين يشار إليهم بالبنان . والشاعر يعلن أن صاحبه فيه حقيقة صدق ، غير أن أساليب تعامله معه غير ذلك أو أن المحبوب ذو صدق ، وإن قدّم التزوير والتلفيق . إذن الشاعر مدرك لحال حبيبه. ورائع اصطياد الشاعر لكلمة ـ تشاكل رأيانا ـ أي اختلط الرأيان ، والرأي هوى كل منهما ، ولأي منهما ما يتذوق ، ليختلف التذوق وكذلك الرأي وحتى الحكيم . والشاعر المبدع ..هو الذي يصطاد تلكم الألفاظ ؛ ويختار المعاني .. لتؤدي ما في نفسه .. وما يعتمل فيها ويرضيه . !

حبيبي ، ألا عادت بك الصبوة التي تخالسني عنها الكلام المنمَّقا
تقول ـ ولا أنسيت ـ أهواك شاعرا إذا قال بزّ القائلين وحلّقا
وأهواك نفاثا لسحرك في دمي وفكري ؛ وأهواك الكذوب المصدقّا
وتقسم ، والأقسام من فيك برَّةٌ ويأبى لنفسي كِبرها أن أصدقا
فصدقك غير الصدق في وزن أهله وهيهات ، إن الفن أصعب مُرتقىَ
وأعرف أن الصدق فيك حقيقة ولو كان ما تزجيه زورا مُلفَّقا
تشاكل رأيانا ، كلانا لنفسه هوىً ، ولكل في الهوى ما تذوّقا

هذا الطرح ، وهذا التقابل .. في خواطر مترعة ، هو صورة جمال التعبير، ليكون الأثر والتأثير في الخطاب إلى المتلقي .. الذي يقرأ هذا الشعر ؛ في تكأة أو مستعرضا ، يتأمل معطيات الحسن .. في الصياغة المتقنة ، لأنه يتابع فنا ، ويقرأ فنانا .. ذا موهبة متوهجة ، فيها ارتقاء حسي ، ليكون هذا الجمال في الفن ، في كل صوره .. (شكوى ورضا ، ووصف ، ونسيب عذب) ، لأنه شعر لا تكلف

في صناعته ، ولكنه حقيقي مصفي .. إن صح هذا التعبير . وأكبر الظن أنني لست مدعوا .. وأنا أمام صفوة من المثقفين .. أن آخذ في تحليل ألفاظ ومعطيات هذه الآبيات .. التي أسوق ، فهي تفصح عن حالها ، وتدل على معانيها ، لأنها تفصح عن حالها ، وتدل على معانيها ، وتشير إلى مضامينها ومعطياتها ، ذلك أنها فكر شاعر .. ذي بيان مبين . وأقول في غير احتياط إنني لا أنطلق في رأيي من عاطفة جامحة ، غير أن هذا الشعر .. هو الذي يدفعني إلى التأكيد على قيمته الجمالية ، لأنه تصوير رائع .. يفتن قارئه ويشغله ، بأن يمعن في تأمله والاستمتاع بقراءته ، ذلك أنه مع شاعر مجوّد في فنه ، بهذا العرض والترابط وبإتقان لا مزيد عليه ، ذلك أنه إحساس صادق وبناء قوي ، لأنه فن أصيل . وأنا مع شاعر ينحت من نفسه وقلبه شعره، ليس هذا شعر انفعال نفس محرومة ، ولا هو شعر خطابي ، ولكنه ضرب من شعر المبدعين القلائل اليوم ، بهذه الجودة ، وهذا النسيج المتقن ، فكل كلمة في كل بيت .. تكاد تهتف أنا هنا ، وأرمي إلى كذا من المعاني البعيدة الغور ، وهذا هو الشعر .. الذي يعتد به ، عند إنشائه وعند سماعه ، لأنه من القليل الذي تلقاه .. في وسط ركام زائف، ومع ذلك يعتدّ به قائلوه والمروجون له، وبعضه .. تستكثر عليه الورق والمداد الذي أنفق عليه، وهو خليق أن يرمي به في وجه صاحبه ، حتى لا يقول المزيد من هذا الغثاء .. الذي لاخير فيه ، وهو محسوب على صاحبه هُراء ، وعلى الأرض .. التي ظهر فيها ، أنه لا غنىّ فيه ، ولا قيمة له ، ومع ذلك .. تمضي به الركبان الزاحفة على بطونها وعلى أربع ، ويجد رواجا زائفا ، لأنه زائف ورخيص وتافه ، ومع ذلك يقال له شعر ، و ما أجدره بسوق النخاسين .. يتسلون به ويعبثون ، لتزجية لوقت الرخيص .. في سوق كاسدة . !

ويطرح الشاعر تساؤلاته .. في المقطع التالي ، انطلاقا من القسم والوعود ، ومنحى الود والإعجاب المتبادلين في الهوى ، يسأل الشاعر حبيبه ، ويشعره أنه غاب ، وأن عليه أن يعود .. إذا صدق وعده . وأن الشاعر لم يتغير . فهو على عهده، على الفطرة ، لم تغيره الأيام ولا الجفاء، وأنه في الأخلاق.. التي لا تتبدل . ويشكو الشاعر البعد ، وأن قلبه لم يرتو بعد ، وفي تقديري أنه لن يرتوي ، لأن معنى الرّي.. في عالم الهوى العطش ، والظمأ المتصل، فلا شفاء . والشاعر يقول :

يا أشعبي الطبع كم قبّلتها ما شفتك !

وأكتفي بسوق البقية من هذه القصيدة أو بعضها .. لألم بغيرها ، حتى لا تصول الوقفة ، وأظنها كذلك . !

وغبت ، فهلا عدت إن كنت صادقا فإني كعهدي فطرة وتخلّقا ؟
أبعداً وقلبي من دنوّك ما ارتوى ودمعي على أعقاب هجرك مارقا ؟

إلى أن يقول .. في هذا التسلسل الخطابي المتواتر ، الذي أضناه الهجر والبعد والحزن :

أحبّك مثلي ، فارتضيت وداده وما زال أوفى منك عهدا وأصدقا
أعان على البلوى ، كما شاطر الهوى وودعت لم تعطف ، وسلّى واشفقا

* * * *

لقد كنت معنى الحسن في الحقل والدُّجَى وفي النسمة الحيرى ، وفي الماء ريّقا
وتالله ما أدعوك للحبّ والجَنى ولكنني أهواك للطهر والتقى
ويا بحر ، هل أدعوك للشمس مَغربا وقد كنت للشمس الحقيقة مشرقا

لا تقولي أهواك :

هذه قصيدة طويلة ، تقرب أبياتها من الثمانين ، وقليل عند شاعرنا النفس الطويل في الشعر ، وليس ذلك لعجز فيه ، غير أنه مثل الصانع الماهر ، الذي يحدد ما يريد وما يحتاج ، فيرسم توجهه ومساره ، بدءه ومنتهاه ، وذلك خلق الاتقان ، فالفن ليس ملهاة ، وليس خبطا عشوائيا ، ولكنه فن عال وأداء بقدرة خارقة ، بعيدا عن الفوضى والتلقائية ، في استطرادات ، تملأ فراغاً ، ولكنها بلا محتوى ، ولا تفضى إلى نتائج ذات قيمة .

الخطاب في هذه القصيدة : « لا تقولي أهواك » أشبه بقصة ، تعرض مسار حياة أديب ـ شاعر ، يتقن الحديث والوصف عن حاله ، ويستعرض من خلال الطرح رحلة عمر، عاش صاحبه بفكره ووجدانه ، وبلى الناس والزمن ، وخاض تجارب الهوى .. من كل تياراته ورؤاه ومساربه وانعطافاته ، بالنجح فيه والإخفاق. إنه شريط يحكي قصة بألوانها وحقائقها ، عبر تيار متجدد .. فيما يسمى الحياة ، التي عاشتها الملايين ، وما يزال الخَلق والأيام في صراع البقاء والدوران ، ليس لأحد من الأمر شيء . !

إن الفلاسفة يتأملون الحياة ، حين يقفون على ربوة .. أو في مفترق طريق ، يديرون حسابات لأنفسهم ولمن حولهم ، حال مراجعة ، فيها ربح وفيها خسارة ، والمرء يجوب الأيام ، في صعود وهبوط ، يصيب ويخطئ ، ويخطئ ويصيب في مساره ، وهو حريص .. أن يحقق مبتغاه إن استطاع ، هو يسعى .. ماستطاع إلى ذلك سبيلا ، لكنه لا يملك ولا يستطيع تحقيق آماله وأحلامه وطموحاته ، إنه يعمل ويتراجع .. حين يدركه الاين ، ويقنع شاء أم أبى ، هناك مقادير تسيره ، لا يملك معها .. الا تحسس خطواته وما يستطيع ، مدركا .. أنه مسير فيمالا يملك ، مخير

فيـما يملك ، وخياره قليـل جدا بالقياس إلى مـساره الحيـاتي . يتنازعه صراعا الخير والشـر ، وهو بينهمـا أسيـر أهواء وهموم وامـتحـان كبـير .. مـتصل الحلقـات ، لا يتـوقف حتى يقـضي ويودع الدنيا ، وحين يعي ويعـقل .. يردد كـما قال الـفاروق رضي الله عنه : « ليت أم عـمـر لم تلده » ، ذلك حين يدرك العـقـلاء ، وهم الذين يشقون في الحياة .. كما يقول المتنبي ، في حياة « قليلها حساب وكثيرها عقاب » كمـا قرأنا في مـحصلة الدنيـا والحيـاة . ما عليك أكـثر مما لك ، حتـى وأنت حذر خائف ، تخطو بحسـاب ، وتعمل بحساب ، وتحاول أن تـتجنب المكاره ، ليست المحفـوفة بالجنة ، وإنما مكاره الحـياة ، ذلك أن الإنسان خلق في كـبد .. كـما يعلن الكتاب العزيز . وفي النفس شهوة واشـتهاء ، وهي التي حفـت بالنار ، والحرمان .. لا يقدر عليه إلا أولو العزم ؛ وهم قليل ، وأقل من القليل ، اللهم رحتمك . !

إن هذه القصيـدة .. التي أفضت بي إلى هذا الاستطراد .. الذي لا أريده أن يطول ، هي التي تحمل قارئها غير العجل ، إلى الريث .. ليحلق مع الشاعر المصور، يتـأمل ويفكر .. فيـما يسـوق هذا الشعـر من ألوان تحفل بهـا الحيـاة والناس ؛ عـبر تجارب ومـعايشة قـاسية . فالمرء يـلهث ، وليس هذا اعتراضًـا على تقدير الله ، فهو سبحانه : ﴿ **لا يسـأل عـمـا يفـعل** ﴾ ، والمهم في تقـديري .. أن الإنسـان ذو دوافع في داخله ، نحو الآمـال والطموح والطمع والامتـلاك .. والهلع . فهو كـما يصوره صانعه : ﴿ **إذا مسّه الشـر جزوعا ، وإذا مـسّه الخير منوعـا** ﴾ . ومن أجل ذلك يشـقى في تكاليه وغـيره على الحـياة ، فـهو مطالب أن يعـمل لكي يعـيش ، وحـوله صـراع الأطمــاع والجـشع والذل والخـوف ، والكذب والخـداع والغش .. وسوء الأخلاق والاقتتال . أتون من القلاقل والصراعات .. أشبه بشريعة الغاب ، التي يضـرب بها المثل ، فأين المفـر ! وكيف السبـيل .. في هذه الغابة التي

منطقها الاقتتال والقوة ، من أجل انتصار .. كيفما كانت معطياته ونتائجه ، المهم الحصول على أكبر قدر من الفوز وحطام الدنيا ، لا يهم السبل التي تسلك لتحقيق ذلك ، ولكن المهم .. هو ما اصطلحنا على تسميته بالغاية ، وأي غاية في حياة - نعيمها تنكيد - كما يقول أمجد الطرابلسي .. في قصيدته « دنيا المتنبي » .

سأسوق نماذج من أبيات هذه القصيدة ، التي رأيت أن أتوقف عندها ، لأنها خليقة بذلك، إذ فيها تصوير حياة نعيشها ، وليس عنها محيد ، وإن كان عنوانها .. ومنطلقاتها « الهوى » وعقابيله وهمومه ، ولكنه قاد إلى تحليق بعيد ، يصور مسيرة الحياة .. كما هي واقعها ، لأن المتحدث رجل بارع عبقري ، يملك زمام البيان والبلاغة والحجاج ، واللفظ والمعنى . وهذا هو الشعر الحق ، الذي ينبغي الإلتفات إليه ، والاهتمام به ، والأخذ منه ، وتأمله وادراك أبعاده ومراميه ، ذلك أنه ليس شعرا سطحيا ، لا رورح فيه ولا حياة ، مثل ما نرى ونمر بألوان تافهة فجة ، وهي عبء ثقيل ، لا يفضي إلى شيء ، لأنه خال من المضمون ، لأن قائله لا يحسن سواه .

إذن سأقدم نماذج من القصيدة ، فهي رباعية وخماسية وفق قوافيها المطردة المختلفة ، ولكني سأقف عند أبيات بعينها ، رأيت أنها جديرة بالتوقف عندها ، لإجراء تحاور حولها ، فهي تغريك بألفاظها ومعانيها ، والقصيدة كلها .. أنموذج رائع ، قوة أداء وبديع نسيج ، وجمال عرض ، ومهارة أداء ، لشاعر صنّاع ، وحسبك بذلك قيمة ، لتجد شعرا .. بالمعنى الواسع لكلمة شعر ، من شاعر قل نظيره في عصره ، بل ندر . والمتميز قليل ونادر .. في كل زمان ومكان ، وإن كانت الدعاوى ، وهو ما أفسد الإفهام والأذواق ، وكذلك ذلك الضلال .. الذي يشيعه المتنطعون والمتفيهقون والدجّالون والمرتزقة من بعض الكاتبين ، الذين يملأون

أنهار الصحف والمجالس ضجيجا وعجيجا ، بما يلفقون ويخرقون من ادعاءات باطلة وفاسدة ، أمام وخلف ومع شاعر ، أيّ شاعر ، بأنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل ، إنه نفاق متجدد ، لا سوق له ولا قيمة ، ولكن هذا النعيق المزعج .. سرعان ما يذهب هباء، لأنه كذب وبهتان ، وبضاعة كاسدة ، لسلعة أكثر كسادا. ثم يسدل الستار ، كما هي الحال في مسرحية هزلية ، مثل مُغنّي الحي ، الوقت معها ضائع . وصدق الله القائل : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ . فالحمد لله أن هذا العبث لا يطول بقاؤه ، لأنه زيف رخيص ، مثل الزبد الذي يذهب جفاء ، لأنه لا ينفع الناس .

إن مطلع قصيدة شاعرنا : « لا تقولي أهواك » وهي خطاب لأنموذج هوى . ولعل الهوى يسوق إلى تأملات جادة قوية رصينة ، لأن الهوى انفعال نفسي ، فتبدى ما يعتمل فيها ، ويحلق الخيال .. في الكون العريض ، يستعرض الحياة وأهلها ، وهي حال من العرض والتنفيس والتصوير البديع عند المجيدين ، ليكون هذا الزاد والثري ، وهو من زاد الحياة .. الذي يركن إليه ، استمتاعا ودرسا وعبرة وذكرى ، ونحن نضطرب في حياتنا العامة والخاصة ، وهذا هو الأدب في الحياة ، تصور لها ، لأنه وجدان صادق قوي ورائع ، ذلك أنه عطاء فكر نيّر مجيد ، وهو الباقي مع غيره في الجديدين . فإلى الشعر :

يا بقايا الشعاع من ألق الشمـــ ـــس تُحيّ البطاح عند الغروب

بعد هذا المطلع الذي يصور بقايا شعاع الشمس المتألق ، نقرأ البيت الرابع والخامس في خماسية قافية من مجموع قوافي القصيدة البديعة ، وبعد هذين البيتين، يبدأ الخطاب للحبيبة ، وهي حبيبة الأمس ، ليس اليوم أو الغد ، والبيتان في المقطع الأول ، يقول الشاعر .. ما جدوى الحديث الذي يصور لهفة النفوس .. في

ارتجافها وقت الوداع المخيف الرهيب ، والصمت في هذا الموقف حالة وتعبير ، عن نفس ونفس ، باق وراحل ، الصمت المفزع والمزعج ، يرى في خفاياه .. أبعد وأعمق خفايا القلوب . إنه تعبير رائع لشاعر متجل سابح ، قادر وقوي ، دقيق كالفوتغراف ، لأن خياله يتعمق خوالج النفوس ، لأنه ذو تجربة ، ولأنه ملهم موهوب .

ما غناء الكلام عن لهفة الأنـ   فس ، في موقف الوداع الرهيب ؟
ربّ صمت أدّى ؤ وصور عن رو   ح لروح ، أنأى خفايا القلوب

ولكي لا يمتد الاستطراد ويطول ، فإنني سأتوقف مع أبيات بعينها .. من هذه القصيدة الطويلة ، وهي سرد لمرحلة من حياة ، في تصوير جمالي ، لأن المتحدث شاعر موهوب ، ذو حس عال ، وذو قدرة على نسج قريض أخاذ ، وناثر قليل المثال ، والشاعر المبدع ، ذلك الذي لا حشو ولا فضل كلام في قصيده ، ولكنه يبدع صناعته ، ليملأ الأسماع ، ويمتع الأذواق ، برؤاه وتخييله ، في سبح يوشيه بيان ناصع كالصبح وبلاغة ثرة ، ومعان ... ترقى إلى عالم السحر البياني ، الذي يشغل سامعه وقارئه ، ذلك أنه جمال من الجمال ، وهو الشعر الحق المطرب ، والمعرب عن خصائص الشعر .. الذي يربطنا بالشعر القديم القوي معاني ونسيجا ولغة وتحليقا ، لذلك بقي أكثر من خمسة عشر قرنا ، لم تذبه الأيام ، ولم تطوه الدهور ، لأنه قيمة فيها حفاظها وبقاؤها وتجددها ، لأنها معنى رفيع .. خليق بالبقاء ، ذلك أن بقاءه فيه ، في أغماقه . !

وشاعرنا في هذه القصيدة وأمثالها ، كأنه يقدم ملحمة ، يتجلى فيها من خلال تصوير حياة ، يكتنفها الجد والهزل والمتغيرات والطموح والأطماع والصراع المتصل ، والنجح والإخفاق .. لمن يضطرب فيها ، والشاعر المجيد مهندس ، يرسم

بريشته خرائطه ،، عبر خطة طموحة ، تغطي مساحات ، لتكون أبراجا ومتنزهات وحقولا وقصورا ، وليالي طوالاً ، حفيلة بما يترع فيها ويبرم ويثار ..إنها حياة بكل ما تعني هذه الكلمة من عمق ومعطيات ، وما ينداح فيها من تشكل وتجدد ومتاع ، ويسر وعسر ، وسعادة وبؤس ، واستمتاع وحرمان وغنى وفقر ، وصحة وسقم . مسرح كبير .. كما يقول يوسف وهبي .

فاعرفي يا حبيبة الأمس أن الحـ ـب نجوى ، ونشوة ، وشعور
لا هياما مقيّد بدواعيـ ـه ، وقولا به اللسان يدور
أو غليلا يروي الرغائب وردا يسـ ـتوي عنده التقى والفجور
والهوى يا حبيبة الأمس وهـ ـم استرقّت به النفوس النفوس
وأعيدي أمسي ، وقد كنت في أمسي دنيا ، يلفها إعصار
لم يكن لي فيها خيار وأسلمـ ـت حياتي ، وما لعانٍ خيار

* * *

ذاك حب الزهور للجدول الحا فل ريّا ، كي لا تجف وتظما
منّة لا أطيقها ، ونفاق عفـ ـته ، والهوى أعفّ وأسمى
فأنا اليوم بين أطلال يأسي طلل للرياح فيه عزيف

* * *

الهوى ، يا حبيبتي ، قد بلونا ه فراحت غاياتنا فيه صرعى
هو نار وقودها قدرة الـ ـحي على أن يظل للنار مرعى
والمودات تشتري الجد بالهز ل ، وتعطى وترا لتأخذ شفعا
والمروءات تقتضي بمساعي الـ ـجود صيتا ـ على الرياء ـ ونفعا
والعبادات ترتدي مظهر الخيـ ـر على أفظع المناكر دِرعا

إنه ترحال شاعر في مرحلة عمره ، نتنقل معه حيث صار ، وحيث توقف لنتأمل شيئا من أشواطه ، وليعوج في وقفاته ببصيرته ، يفلسف ما يرى وما يحس ، ويعلل الأمور .. على مقتضى الواقع المعاش ، مهما حاول هذا الواقع .. أن يرتدي براقع وغلالات ليخفي أشياء ، ويحاول تغيير ملامسها وسموتها ، إلا أنها في خيال وعين المبصر ، ليست على حقيقتها ، وليست صحيحة .. في موازين الصدق والحق ، وإنما فيها تزوير وتزويق وبريق ، ليخفي العيوب والتصنّع والمين والخداع .

شيء من بيان لموازين الحب، حديث هامس ومتاع وارف وإحساس متوهج. ذلك هو الحب الحقيقي . وليس اطراح اندفاع نفس هائمة وحالة يحكمها قيد ذي شعب . وليس كلاما يردده اللسان . وليس ظمأ ، ينال بدوافع النفس ، يلتقي ويتساوى فيه تقي وفاجر ، الحب ليس تلك النماذج التصويرية المنداحة على الطريق ، ينال منها العابر بأحواله المختلفة ومشاربه ، ولكنه شيء آخر مختلف ، وإن كان صعبا وعنيفا ، وحرمانا وعناء لا حدود له !

* * *

وأعيدي أمسي ، وقد كنت في   أمسي دنيا ، يلفها إعصار

لم يكن لي فيها خيار فأسلمـ   ـت حياتي ، وما لعان خيار

وهل إعادة الأمس شيء متاح ؟ وهل هو بيدها ، وهل هي قادرة ؟ خيالات شاعر سابح فيما يشبه الأحلام والوهم . إنه يريد عودة كيانه .. الذي غاب عنه ، بدواعي الحب الذي هام فيه ، ففقد دنياه بصروفها وقسوتها وصراعه فيها ، ولعلها عنده خير .. من حال: أنا أهواك وما أفضت به . وأمس الشاعر وحاضره وغده ،

كل ذلك .. ليس له فيه خيـار ، وربما كان يعني ما جد من الأغيار ، فـهو إذن أسير ظروفه . وليس له خيار ، لأنه ليس له من الأمر شيء .!

إنه في أطلال اليـأس ، والطلل وحده بقـايا حيـاة في القلوب ، صوحت بـها الأيام ، فكيف .. حين يلفها يأس ؟ ، إنه يشبه الرماد الذي اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وهذا الطلل المتجـوف .. تتخلله الرياح ، ليكون له صفير وصوت كيانه طلل فيه بأس !

ويعلن الشاعـر .. أنه عاش الهـوى ، والأهداف أصبحت صـرعى ، لا قدرة لها على امتـلاك ما تهوى النفس . ويصف الشاعر الهـوى بأنه نار ، وطاقة الإنسان هي وقوده .. تأكـله طوال حياته ، ومـا دام يعيش أتون الحب .. فـإنها ترعى فـيه . والعواطف تنال بالهزل والجد ، فهي مقابلة ضيزى ، أو قل غير متوازنة ، فالود يقدم أقل مما ينال ، أي واحدا لقـاء عشرة . والمروءة تنال صـيتا بمعطيـات الجود ومظاهره ومقـتضـياته ، وباطن هذه الظواهر زيف وزور ، ومع ذلـك تحقق منافع ومـصالح ، ذلك من مسالك الحياة وشجونها . كمـا أن كثيرا من العبادات ، وهي فروض نحو الخير والثـواب ، ومع ذلك .. فظواهر أو صورها الإنسانية الخيرة ، فهي فيـها تتدثر بالنكر الفظيع . والشـاعر في هذا الوصف .. أصـاب كبد الحـقيـقة .. وهو يتـعمق سلوك بعض الناس وظواهرهم .. التي تكذبها حـقائقهم ، فمسوحـهـم غير دواخل نفوسهم ، ليقال إنهم تقاة وأخيار « ويريدون أن يحمدوا بما لم فعلوا » .

ونرى الشك يتلبس الشاعر، وأن التي تقول « أهواك ».. تدق دفوف الغاب. ورائع كلمة دفوف ، وهي دفوف كاذبة ظالمة ، كما يقـال شريعة الغاب ، استبداد وتسلط والنصر فيها للقوي والقـوة ، والحياة كلها كذلك . وزهير يقول : « ومن لا يظلم الناس يظلـم » . كمـا يقول : « ومـن لم يذد عن حوضـه بسـلاحه يهـدم » . لذلك يقول شاعرنا للتي تعلن أنها تهواه :

لا تقولي : أهواك ، إن بعينيـــ ك حنينا إلى دفـوف الغـاب

ويرجوها أن تترك له بقية كـيانه الواهي ، الذي قوى عليه وأضناه الصراع في عباب الحياة ، ليلتقط أنفاسه ببقية قواه :

فدعي لي بقيّة من كيان وا هن آده صراع العبـــاب

ويعلن الشاعر أنه والحـبّ ومحبوبته غـرباء ، والحب حاجتهمـا ، ولعلهما لم يقويا على تحـقيق ذلك المطلب الصـعب ، ويشعران أنهـما تائهـان في سبيل الحـياة والبقـاء . وجمـيل قوله ، وهو أن الهـوى جمـعتهم أسبابه ، كـما يتـلاقى ضدّان ، صورهـما بأنهـما صـائد .. ومصـيد . ويذكر أنـهما انـتشيـا بهذه المـصاحبـة ، ثم يستدرك، كأنه أحس بشيء من غبن، حيث ضاع قطّه ، في همي الألم والنكران :

أفلسنا ، والحب مطلب نفسيـــ نا ، غريبين في سبـيل الوجـود
وانتشينـا ـ بل انتشيت ـ فقـد ضـا ع نصيبي بين الأسـى والجحـود

وحمـزة شحاتة .. لو عنى به الدارسـونِ الحقيقـيون ، الذين يحفلون بالشـعر لآليه النـاس ، كما انشـغل القدمـاء والمحدثون بالشـعراء الفحـول ، ومنهم ، بل في مقـدمتـهم أبو الطيب المتنبي ، فهل يـقيض الله من يفـرغ لهذا الشعـر وحتى للـنثر ، وربما تكفي محاضرته الرائعة .. التي ألقاها في جمـعية الإسعاف : « الرجولة عماد الخلق الفـاضل » . أكبـر الظن أننا سـوف نظفـر بدراسة تظهـر جـمال وروعـة هذا الشعر البـديع القوي الماتع ، لأنه خليق أن يعني به ، لفظا ومعنى ومعطيـات معان ، وإن هجرانه اتهـام يلاحق القادرين ، وتقـصير يـحسب عليهم ، وإدانة سيحـملها التاريخ في صفـحاته الثرية بالكبار والنوابغ والعـباقرة والعظماء ، فـالأدب الذي فيه إعجاز سيبقى ما بقيت الحياة ، لأن معطيات بقائه تكمن فيه .

لا تقـــولـي أهواك فـــالحب قـــيـــــ ـــد ، ودواعـي الحيـاة ضـد القـيـود
إنمـا أنـت زهـرة ذات عـطـــــــــ ـــر نم عن مطـلب الوجــود شـــذاها
وســـــــواء عـنـد الـزهـور ، إذا رفّ (م) سناهـا ، من صـــانهـــا أوجنـاهـا
لا تقـــولي : أهـواك ، لست بـسكـــ ـــران فـزهـفـو ، أبعـد ما جـفّ كـرمي
شـاكـيـا مـا لقـيت من عنت الـدّ نيـا إليـهـا ، إن الـطـبـيـعـة أمي
لا تقـــولي أخـــشى عـليك الـعـــوا دي ، أي شيء أبـقت عـــواديك منّي
وكليـني لوحـدتي في زوايا الصــمـــ ـــت ، أسـري علي غـيـاهـب حـزني
وتنـاسي عــهـــدي البـئـيس ، فـإن شـاقـك أمـري فـسـائـلي الليل عني
فـأنا فـيـه قـطعـة من دياجـيـــ ـــه ، عـــداهـا عن اليـــقين التظـني
فلقـــد طال بـالحـقــائق لـلناس افـــ تقـــادي ،وفي الحـيـــاة عـــشـارى

* * *

تعـس العـــقـل إنه خـــانـق الفــــر حـة في النـفس يتّـقـي عــقـبـاهـا
فـــهـــو لـلحس والمشــاعـــر قـيـــ ـــد ، شـل أحـلامـهـــا ، وعـاق رؤاهـا
طـالمـا هـام بـالمـوارد ظـمـــــآ ن فـلمـــــا وافـى الـورود أبـاهـا
تعـس العــــقل هـائمـــا بالـنهـــايا ت ، يراهـا حِسّ النفـوس سـفـاهـا

شاعـرنا يهيم في الهوى ، ولكنه هوى غـير ما عـرف الناس وألفوا ، ذلك .. أنه يريد قيـدا ، والهوى لا بد له من قيـود ، وليته قـيد واحد ، ويعلل رفض القـيد ، لأن سبل الحياة ومتطلباتها ، يقول إنها ضد القيـود ، فإذا كان يعني بذلك الحرية ، انطلاقا من مقولة ابن الخطاب رضي الله عنه : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمـهاتهم أحـرارا » ، فأنا مـعه ، غـير أن أحكام الهـوى .. لهـا عللها ومـتطلباتهـا ، وأهمهـا التسلط والتـحكم والقيود .. التي لا مـحيد عنهـا ، فهـوى وحرية مطلب

يوشك أن يكون مستحيلا ، وشاعـرنا نفسه يدرك ذلك ، ولكنه يعلن أنه ضد القيد ورافض له ، إذن لا هوى ، لأن الحرية تعني الانطلاق .. وعدم الالتزام والتحرير من التزامات كثر !

ويعـرج الشـاعـر إلى وصف المحبوبـة ، بأنهـا زهرة عطرة ، ينبئ شـذاها عن متطلبات الحيـاة ، لأنه جمال ، والحياة متاع ، والعطـر والجمال ترف . والزهر يتفق ويتساوى عنده.. فالزهرة ذا تضوعت وانتشر عـبقها، فذلك معطاها ، سيان عندها الذي يحافظ عليـها ويرعاها ويحفل بهـا ويستمتع بها بمختلف الأساليب، والذي يقطفها.. ليعبث بها ويتـظاهر أنه حفيل بالجمال والعبق، ثم يرمي بها يمنة أو يسرة، غيـر مبـال ، لأنه لا يهمـه شعور وإحسـاس الزهر ، ذلك .. أنه غـير مـدرك لقيـمة الجمال .!

ويكرر القول لهواه .. ألا تقول: أهواك! فهو في صحوه، وليس غائبا عقله .. حـتى يهـفـو ويميل ويندفع ، والعلة أن زمن الميل ودواعـيـه انـقـضـت . والربط بين السكر وجفـاف ـ الكرم ـ ، لفتة شاعـر عبقـري ، وكان يمكن أن يختار غـير الكرم لأداء المعنى والقـافيـة ، ولكنه قـصـد ، وهي قـدرة شـاعر فنان في ألفـاظه ومـعانيـه وأهداف تفكيره .

وتراجع الشـاعـر عن الهوى ، انه فـقـد الأمل ، وأن الأيام لم تنصـفـه ، فهـو يشكو الزمـان ، ويشكو الأيام إليـها ، ولذلك فـهـو يعبـر عن حـاله ، ويعلن أنه ابن الطبيعة ، فربما كانت أرحم وأحنّ وأجدى !

ومع ما حل به ، إلا أنه باق بإرادته وقدراته وصحوه وإبائه وشممه ، ولا يريد من الحـبيبـة تعاطفـهـا وحرصـهـا .. علي أي نحـو كان ، لا يريد حـتى نصـحـهـا ووصـاياها ، من عـاديات الزمـان .. أن تلم بـه فـتؤذيـه ، إذا لم يكن عنده حـمـاية

ووقاية ورعاية من يهوى، لأنه مدرك .. أن حوادثها وأعراضها وهمومها.. جردته ، ولم تبق فيه شيئا ، وربما كانت عوادي الأيام أقل مؤونة وتبعة وآلاما ! « أي شيء أبقت عواديك مني » ، تعبير متقن ، من ذي منطق ملهم ! .

ويقول لها : دعيني وحيدا وشأني ، بعيدا ، يكتنفني الصمت ، ينفّس عن حزنه المظلم، إذ لم يعد له مطلب وأرب ونفس تواقة إلى الهوى والفراغ. ويريدها.. أن تنسى أيامه ، فقد كان بؤسا ، ربما ناوشه ضياع وهموم ، وإذا ودّت إدراك حاله وشأنه ، فلتسأل سميره الليل ، وهو طويل .. بالقياس إلى المحرومين وسهارى الألم والحزن والبؤس . فالشاعر جزئية من ظلامه تصطلى في شجوها مما أبعدها عن ايمانها ورؤى النور ، حيث أبعدها الاحتراق عن سبل الهناءة والاستقرار والرضا .

وخلال هذا السرد القوي المتين ، يعلن أنه غاب عن الناس ، وهي حال مؤكدة ، لأنه يعاني في الحياة شروراً وإحنا وضنكا . ويتجه الشاعر إلى العقل ، فهو مكبّل الفرحة التي تسعد بها النفس ، فيحرمها لحظات صفاء وهناء ، والعقل عند الفلاسفة سراج ، يخشى العثار ، ويخاف عواقب الفرح ، لأن الدنيا كما يصفها الخليفة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ، تسرّ قليلا وتجرّهمّا كثيرا ؛ هكذا ديدنها وشأنها . ويؤكد الشاعر أن العقل يكبت الحس والشعور ، ويعطل أحلامها ، ويعيق رؤاها ، فلا تأنس بزهو .. ولا ما يفرحها ، لتعيش لحظات جذلي ، تغمرها بارقات الحياة .. الرفافة ، وأنه ـ أي العقل ـ كثيرا ما طاف وتطلع إلى الورد وهو ظامئ صدي ، ولما أتيح له المورد .. الذي أضناه الوصول إليه ، رفض ما كان يبتغي وينصب ليصل إلى شيء من ذلك ، ومرد ذلك العقل .. الذي يشقى به الإنسان ، على رأي المتنبي ، والحس كذلك ، الذي يترفع دائما .. إذا أدرك شيئا من تردد وحواجز ولغوب . ويعود الشاعر يزدري بالعقل وتسلطه وتحكمه ، لأنه يشغل

بالعــواقب .. ومــا هو خــاف وراءها ، إنـه تخــوف إدراك واع ، على حين نجــد العواطف تندفع نحو رغباتهـا .. لتنال منها ما تريد ، وليكن ما يكون بعد ذلك ، لا تأبه بالكوابح ولا بالنـذير . والحس في نفس المرء .. يرى أن الهـيام بما سـيكون من نتائج.. هي سفاهة، تفضي إلى ضياع الفرص والاستمتاع بلعب ولهو وزينة الحياة. وتنتهي هذه القصيـدة .. التي جمعت أطرافا من متع الحيـاة وهمومها.. في وصف أخّاذ قـوي ، طاف بنا عبر تخـيـيل ورؤى شاعر مـجلٍ مجيد ؛ ذي قـدرات شتى ، تفضي إلى هذا اللون من الشعر الممتع للنفس، فتجد فيه نفسها وسلواهـا وهواهـا ، لأنـه وصف للـحـيـاة .. التي يضطرب فـيـهـا الأحـيـاء من النـاس ، والذي يتـقن تصويرها .. على حـقيقـتها هو خـيال شاعـر موهوب ، ذي حس شفـيف ، واتقان بارع لنسيج رائع .. يبقى مع الأيام مـؤثرا ، لأنه صادق وفيه مقومـات البقاء ، التي تحفظ الشيء ذا القيمة ، لأنه قيمة . !

أبيس :

أمامي بعـض قصائد لشـاعرنا حـمزة شـحاتة .. مثل « غـادة بولاق » ، التي نشرت فـي الديـوان .. بعنـوان « نفيسـة » ، ـ نهايـة ، « لغز الحيـاة » ، ـ حظـوظ ، « فلسفة حائر » ، وكلها قصائد جـياد ، نسيب وغزل . وحتى لا يطول الوقوف .. في هذه الورقات ، وكـذلك الوقت لا يسعف .. لأتوقف مـرات متعددة رأيت أن أكتفي بهذه القـصيدة .. التي أسماها الشاعر « أبيس » . ولعلهـا واحدة من قصائد أخرى ، تهـتم بموضوعات مـتصل بعضـها ببـعض ، وأكبر الظن أن الشـاعـر .. في ساعة من سـاعات ضيقـه بالحياة والناس مزق ذلك الـشعر ، وربما كانت القـصيدة هذه .. بعيدة عن يده ، أو منها نسخ لدى بـعض الصديق ، فأتيح لها .. أن تدخل الديوان ، وهي كما أظن « بقية » من قصائـد طوال ، نظمها الشاعر، خلال أيامه..

قبل الأخيرة ، ناقما وساخطا على ما حوله ، فصاغ سخطه شعرا ، يصور تبرمه بما حوله وضيقه بما يجري من نكر واستبداد وظلم وباطل ، وما أكثر الظلم والباطل والاستبداد .. في هذه الحياة ، التي أرخص شيء فيها هو الإنسان وليس سواه ، وإنما كل شيء غال ، والإنسان أرخص السلع في أسواقها . إنه « أبيس » ، كما تقول مقدمة القصيدة ، ولست أدري ، هل هذا التعريف .. كتبه الشاعر أم غيره ، وقد لا يعنينا ذلك كثيرا . و ـ أبيس ـ حسب الشرح والتفسير المدون كبيان للاسم هو : « عجل ذو صفات خاصة ، جعله المصريون القدماء رمزا للقوة الحيوانية ، وقدسوه ، وهو في هذه القصيدة رمز لحاكم معين » . وأترك المقدمة ، وأكتفي بتعريف العنوان، لأتوقف مع الشعر وقفات.. لا أدري هل تطول ، أم أني أكتفي .. بإلمامه قصيرة ، مما توحيه القصيدة وتبينه ، وأكبر الظن .. أن التأمل فيما تحمل القصيدة من معان وتصور .. لما أحسّ الشاعر وشاهد وعاش ، يدعو إلى وقفة لا تكون عجلى ، فقصيدة طويلة ، تتحدث عن مصاب .. ينبغي أن تأخذ حقها من الحديث الممعن .. في التأمل، ليس بعيدا عن جو القصيدة ، وإنما من معطياتها ، وما تحمل من رؤى وحياة ، يصوره هذا الشعر الصادق الحي النابض .. الذي جاشت به نفس الشاعر ، والنفس وحس الإنسان لا يجيشان إلا في عظائم الأمور، وحين يبلغ السيل الزبا ، كما تقول العرب ، و « يفيض الإناء ويطفح » بما فيه ، مما يكرب النفس ، فتجأر بالشكوى العارمة ، والتعبير ثاني أدوات الإنكار لما يجري من نكر علي الأرض بين الناس ، فهو استبداد الأقوياء ، الذي يطحن الضعفاء ويسلبهم إرادة الحياة ، والطغيان .. ينساح في ساحات عريضة من دنيا الناس ، وخالق الخلق ومبدع الكون رقيب حسيب، وهو سبحانه يمهل ، فإذا أخذ ، فأخذ عزيز مقتدر ، وأخذه أليم، حين يعم الفساد والجور والبطش ، ويعلو صوت السخط والشكوى .. إلى عنان السماء . وليس الله بغافل عما يعمل الظالمون ، كما يعلن الكتاب العزيز .

والطغاة يتمادون في غيهم وطغيانهم . وأخذ الله لهم أليم شديد . غير أننا ونحن نستقرىء التاريخ . لا نرى عبرة في عقاب الظالمين ، ذلك أن الظلم .. يتجدد ويستشري ؛ كأن الظالمين على أعينهم غشاوة ، فهم في عمى ، ولذلك يجنون العقاب الذي لا يبقى ولا يذر ، جزاء ما أسرفوا واستبدوا ودمروا .. والحال تشمل قرونا وحاكمين وذوي طغيان كعادٍ وثمود وقوم نوح عليه السلام ، وكفرعون وهامان وقارون ، إنه عقاب السماء ، ـ جزاء وفاقا ـ . ولكن الناس لا يعتبرون ، لأنهم حين يتجبرون وتأخذهم الكبرياء بالإثم ، لا يرون عبرة ولا هدى ، ولا يرون شيئا من حق ، وإنما سبيلهم الظلم ، ومرده العاقبة الوخيمة . فالإنسان يطغى إذا استغنى وكان ذا نفوذ ، فيتلبسه الجبروت ، إلا من سلم الله ، فيحق عليهم العذاب والذل والهوان ، حين ينتقم الله منهم ، لأنه سبحانه عدل ، ويمتد حلمه لينداح إمتحان الظالم والمظلوم ، ثم تكون العاقبة ، وهي تدمير العدو ، ويمكن المستضعفين في الأرض ، لينظر كيف يعملون .

إن قصيدة شاعرنا .. التي آثرت أن أقدمها على غيرها ، جذبتني إليها ، لأن الظلم والعدوان استشريا في الأرض ، والناس يدعون .. فلا يستجاب لهم ، لأنهم نسو الله فأنساهم أنفسهم ، حادوا عن الطريق السوي ، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وحق عليهم قول ربنا : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ ، وقوله : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ . وحتى لا يأخذني الاستطراد ، فإني أتعجل تقديم نماذج من القصيدة .. التي آثرت الوقوف عليها ، لنرى معا معطياتها ومضامينها ، وما أراد الشاعر أن يقول فيها ، ومن بدايتها يظهر فيها ضيق الشاعر وقلقه وشكواه وغربته ولواعج الهوى ، وجراح إبائه ، وما يعاني من شقاء فيما يسمى نعيم الحب ، وعذابات الحزن .. في « شجون لا تنتهي » ، في بريق السراب ووعود الهوى ، في

عسر وشدة وحرمان . معانٍ شتى ، وصور تتوالى تباعا في حيرة وظلام ، فهيا إلى ما يمتح الشاعر من قلبه الدامي ، وأشواق نفسه ، وشقاه بشعوره وأحاسيسه ، إنها نفس شاعر شفافة هائمة ، في يم الحرمان والضنك واللغوب ، ولو كان من عرض الناس .. لما اشتد عذابه ، ولما أحس بحرمانه ويأسه ، ولما عانى هذا الكرب .. الذي نقرؤه في أكثر شعره ، وأكبر الظن .. أن هذا الحرمان والعسر اللذين يثيران الشجن ، وهذه الإحن .. التي ابتلى بها الشاعر وشقاء نفسه كل هذا وغيره .. دوافع قوية ، تشبه البراكين ، تنفعل في نفسه ، ليكون هذا الشعر القوي ، الذي نقرؤه ، ولولا ذلك ، لما تفجرت هذه العبقرية ، ولما ثار الشاعر ، ليعلو صوته بهذا الإنشاد القوي الرائع ، لأن الشجي يبعث الشجى .. كما يقال ، فالحرمان وقود ملتهب ، لإثارة كوامن النفس .. التي فيها جذوة الاستجابة ، لما يعتمل في الحياة ، وبالتالي يثير كوامن البركان في النفس الطموح ، والفكر المتقد ، والقلب الخافق ، من دواعي الرفض والتمرد على حياة الذل والركود والحرمان وتجريم الأبرياء ، وأنين الحيارى ، وعذاب النفس الإنسانية ، من أجل أن تعيش حياة كريمة عزيزة ، أو حتى حياة الكفاف كل هذه العوامل من بؤس وكدح ومسغبة ، وضياع الحقوق ، واضطراب الموازين ، الذي يفسره الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رحمه الله : « ما رأيت إسرافا إلا وبجانبه حق مضيّع » . فإلى الشعر دنواً واستيعابا ورؤية :

ما اصطباري على الأسى وثوائي ... ونِدائي من لا يجيب ندائي ؟
جمد الدمع في مآقي يا حسب وقرّ ... اللهيب في أحشائي
عدت من غربتي إلى الليل والفجـ ... ـر ، لكي يسمعا ترانيم نائي
ضعت في تيهك المحير يا حب ... تمزقت في أسى بلوائي
وتساءلت في نعيمك : كم أشـ ... ـقى ! وكم أرعوى بغير رضاء

كم أروض الإباء فيك على الصبّـ ـر وأغضى على جراح إبائي
كم ألاقي العذاب منك ، ولا أشكو وألقاك بالهوى والولاء !
كم أخوض الأحزان راكب تيه ضلّ في لا نهاية سوداء
يا دروب الهوى تغطيت بالور د على الشوك ، غارقا في الدماء !
الضحايا من تحته مهج حرّ ى ، ومن فوقه رؤى شعراء
هكذا أنت ، والمحبون ، من قبـ ـل ، فراش مسيّر للفناء
رحلة تثمر اللغوب وخيط من حرير ، يقتادنا للشقاء

وتمضي القصيدة بهذه المقدمة، التي تشبه المقدمات الطللية في الشعر القديم، خطاب شجو وتحسر ونداء .. لمن مضى، والمنادى ـ بكسر الدال ـ ، غير مسمع . ويمضي الشاعر في هذه التقدمة المغلفة بالهوى وتوجيه اللوم إلى رموز شتى ، منها بريق السراب في شكوى عارمة متراكمة عن غدر الهوى ، فيقول :

يا بريق السراب ! أسرفت في الجو ر واثخنت في قلوب الظماء !
أنت ، أنت الهوى دنوا وبعداً في تصاريف غدره والوفاء
ووعود الهوى أجل عطايا ه ، فهل يرخص الهوى بالعطاء
وعذاب الحرمان صوّر للعا شق أن الهوى زمام الشقاء
غير أن الهوى يحول ويذوي كـ الرؤى والزهور والانداء

ولا أبغي الخوض في أحابيل الهوى ، والانغماس في ركابه ، فقد يدركني الغرق ، ويعزّ المنقذ ، ولكني أريد أن أنفذ إلى هدف هذه القصيدة ، ولعلي أنهي هذه الوقفة ، التي كنت أوثر أن تطول ، غير أن الزمن يسرق الحياة ومن فيها أو يطويها على الأصح ، ولأدع الوقوف مع حمزة شحاتة .. لمن هو أقدر مني على الخوض في عباب هذا الشعر ، ليعطي صاحبه حقه من التقدير ، وللشعر نصيبه من

القيمة التي يستحقها ، ولا سيما القيمة الفنية ، التي هي مرتكز الدراسة الجادة .. في تقويم الآثار ذات القيمة .

ويمتد الحديث عن الهوى في خطاب الشاعر المجلي ، كان الهوى مطية إلى تلك الهموم من الاستبداد والظلم والتسلط . ويمتد النَفَس بالشاعر ، فيقول :

خبذا الوعر والعثار ، وأخطا ... ر الليالي .. سريّ على الوعثاء
ودروبا لا تنتهي ، وعذابا ... تتحداهما خطى التعساء
عازفات عن الهوى ومغانيـ ... ـه ، هياما بالواحة الخضراء
حيث لا ترتدي الصداقة أثوا ... با بلوني خداعها والرياء
حيث لا يطعن الرفيق رفيقا ... بين دعوى تقواه والإغواء
حيث تجفو النفوس كل الحقارا ... ت لتحيا بصفحة بيضاء
لا كما تسرح السوائم في المر ... عى ، على فضل عشبها والماء
في قيود من عيشها ودواعيـ ... ـه وأمن من جهلها والغباء
حيث لا تُنصب الشعارات زيفا ... وفجورا يُروَى ومحض افتراء
حيث لا تُمسخ النسور خفافيـ ... ـش ، هوت فوق أرجل الزعماء
حيث تبقى الصلاة تقوى وطهرا ... لا فخاخا للبيع أو للشراء
حيث لا يجبن الشجاع لما يخـ ... ـشاه من سامع يشي أو رائي
حيث لا تخضع الحياة لغير اللّـ ... ـه ، رب البأساء والنعماء
حيث ما كان أو يكون سوى الحـ ... ـق وصوت الهدى ووحي السماء
ربما تصدق المساعي فتنجا ... ب غيوم الأسى عن الشرفاء
لم تهن عزمة يساندها الإصـ ... ـرار ، لم يُلق راية الكبرياء
وتؤوب الأوطار بعد نداد ... ويعود الربيع بعد انقضاء

وكــــذا كل ليلة تلد الفـــجــــــر ، فــيُلوي بالظلمـــة الدكناء
وقطوب الغــيـــوم بشَّـــر بالغـيــــث ، ابتسـاما في البقعة الجرداء
ربّ دان نــأى ، ونــاء تــدانـــى رهن قيدين ، صبحه والمساء

وكذلك وثب الشاعر من حديث الغزل وعنائه إلى ما يسمى «بيت القصيد»؛ تجمز المعاني على لسانه ، لتؤدي الألفاظ ، وهي ترجمان لها ، ما أراد الشاعر تصويره ، بإرادة ورؤية شاعر شجاع ، لا يهاب الاحن وأوضار الحياة ، وهو يتحدث عن الحق والزيف والخداع والمين والغدر وحقارات النفوس الذليلة الهزيلة ، التي تشبه السائمة ، تهيم على وجهها نحو فضلة مرعى وصبابة ماء تبل الصدى ، إذ تحول المزايدات الشعارات زيفاً وفجوراً علانية ، يكسوه الكذب والبهتان ، وتمسخ النسور لتصبح خفافيش ، تتداعى بين سوق الزعامات الخداعة المضلة . والصلاة العبادة ، تتحول إلى مصائد تباع وتشتري ، ويجن الشجاع بالوشايات والجواسيس الخبثاء ، ولا تخضع الحياة لغير الله ، ولا يكون سوى الحق وهدى‌الله . ويتمنى الشاعر أن المساعي قد تصدق ، فتتحول الغمة عن الشرفاء ، وأن العزيمة التي يحفها الإصرار .. لن تهون، ففي يدها راية الكبرياء. وترجع الرغائب.. بعد نفور ، ويزهر الربيع ، بعد المحل والجفاف ، مثلما يخرج الفجر المشرق .. من جوف الليل ، فيبدد الظلام الدامس ، وتجمع الغيوم بشائر غيث ، لتهتز الأرض وتربو ، وقد كانت خاشعة : ﴿ **إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شيء قدير** ﴾ . وكذلك يبعد قريب ، ويدنو بعيد . ربما كما يردد الشاعر عبر خواطره الجامحة الدفاقة .

ونمضي مع سبح الشاعر وانثيال خواطره في هذا الشلال الدافق ، البعيد المرامي ، ولنقرأ معا قوله :

يا سدورا كتبتها بدمي الحرّ أنيري جوانب الصحراء
وابعثي في رمالها اللهب الثا وي ، عهدا يفور بالأنواء
عهد عمرو يحيط بالنيل بحرا نبويا ، سرى بنور ذُكاء
وانشري في مواطن العرب اللا هين نارا مكّية اللألاء
لتقصي عهد العباقرة السّمـ ـر ، كتابا يفيض بالأنباء
وأعيدي تاريخ مكة ، في الآ فاق ، فتحا يسحّ بالآلاء
لا هُراء ، يديره فم ملقيـ ـه ، على الهاتفين والأجراء
استخفتهمو الرُّؤى والأمانيُّ بيوم يأتي وفير الغذاء
كالبراغيت ساقها الجوع والبر د ، وعاشت على دم الغرباء
إيه ! يا وحدة تبشر بالخيـ ـر براغيثها ، خذي بالإناء
واملأيه دما ، من الجار والصا حب ، باسم اشتراكهم في الإخاء
واضربي بالدفوف ، في حلقات الـ ـذكر ، رقصا ، وبرِّزى في الدّهاء
ما يزال الخداع ميسمك البا رز بين الصحاب والأعداء
فاركبي الرجس من طباعك يماً والبسي للرياء ألف رداء
لن تسودي ، ولن تقودي سوى تلـ ـك البراغيث ، تحت كل ادعاء
فالقوانين لا تجيز ولن تر حم من غاص في دم الأبرياء
ومن استعبد الرقاب فأجر ها على حكمه بدعوى البناء
إن لله غيرة وانتقاما عصفا بالطغاة ، للضعفاء
عمي الظالمون عن سبل الحق فهاموا في الفتنة العمياء
والمصير المحتوم يزحف في صمـ ـت ، لأعناقهم ، بشرّ الجزاء
محن الدهر تنقضي والضلالا تُولّي ، والموت للجبناء

وأكبر الظن أنني في غنى عن شرح معطيات هذا الشعر ، لأنه بيّن المعاني والتوجه ، وما زالت القصيدة طويلة ، ولعلي غير مضطر إلى أن آتي عليها كلها ، إذن ، فأنا سأنقل منها أبياتا ، وهو ما أرى أنه ينبغي أن يكمل الصورة .. التي أرادها الشاعر، وحتى لا تكون الوقفة مبتورة ، فأسيء إلى الشاعر .. وأنا لا أدري ، وليس ذلك من طبعي ، ثم للمثقف والقارئ . أن يرجع إلى القصيدة كلها في ديوان الشاعر ، ليتأمل فيها ، ويستوعبها ، ويأخذ منها ويدع ما يشاء ، ولن أفرض رأيي واختياري، ذلك أني أمرىء ، أعجبه هذا الشاعر أو ذاك، فرغب أن يصحبه ، وأن يستمع إليه ، ويعلق ما شاقه التعليق ، بما تأثر به وأعجبه ، وأشار إلى ما لم يعجبه ! ذلك هو دوري اليسير .. في هذا التوجه ونحوه ، مما أشغل نفسي به ، وأنا أطالع ما يعنّ لي أن أختار ، وأمر به من كتب الأدب . !

يا خيامَ الصَّحراءِ * قد بَلَغ الصَّمـ ـتُ مَداه على أذى الغَوغاءِ
فاركبي ، واضربي ، على طولِ مَسرا كِ ، فلولَ الخَيال والخُيَلاءِ
الفُلولَ التي يُسَيِّرها ثَوْ رٌ بسَوطِ الزعامة الجَوفاءِ
صارَ معبودَها ، كما كان من قَبـ ـلُ ، وقد خار مُمعناً في الهُراءَ
وتحدَّى بالظلف والقَرْن والذَّيـ ـلِ « وقد هَاجَ » قُدرةَ القُدَرَاءِ
مستَخفّاً بالإنسِ والجنّ ، بالعا لَمِ طُرّاً بِرَفرَفِ الجَوزاءِ
ماضِياً في خُواره ينذر الدنيا بويَلات بَأسه العَسراءِ
فاختفي يا نجومُ ! قد أقبلَ العجـ ـلُ ، إلَهُ الكُهَّان.. والعُرَفاءِ
الذي صَيَّر الخيانةَ والغَد رَ شعاراً لعهده الوضَّاءِ
والذي نازَعَ الرَّغيفَ رعايا هُ ، فضاقوا بَصيَفهم والشّتاءِ
غاصِباً مِن حقولهم ثمرَ الكد حِ رُكاماً ، أحاله كالهُباءِ

فـاذهـبِي يا رياحُ ! بالحَـرثِ والنَّسـ ـل ، وعـودي بالأيـن والثُّـؤَباء
وانسـخي آيـة الحـقـار ، وطـوفي بالعـوادي .. بالراية الحـمـراء
يا ألـوهيـة العـجـول أفـيـقي من خـمـار الجنون والصـهـبـاء
لم تـضق رقـعـةُ الخـيـال بعـجلِ سـام عُـبَّـادَه حـيـاة الإمـاء
يا عـقـولا تأ لَّه الـعِـجلُ فـيـهـا أى قـرنيـه مـؤذن بالعـفـاء !
ليس يـلحى عـجل ، يخـور فـيلقى بين عُـبّـاده ، بـآي الثـناء
جل ، يا ثور ! من براك وناجـا ك على الطور في ليـالي الجـلاء
وضعوا العجل حيث يكدح في الغيـ ـط ، ذليل القـرنين في استـخـذاء
حـيث لا تعـبـد العـجـول إلهـا مـن ذوات الأظـلاف فـي الأهـواء
حـينمـا ألـّهـو أبيس ، فـأصـلا هم جـحيـمـا .. مستـشريا كـالوباء
عن أبيس .. وعن عـبـاد أبيس وضـحـايا السـيـاسـة الحـولاء
كذب السـامري ، ما كنـت ، يا عجـ ـل ، سـوى فـتنة بغـيـر كـسـاء
كـيف لا تعبـد العجـول ؟ وما تخـ ـلق إلا لـلـذبح والإقـتـناء
لِمَ لمْ يلز موك مـأواك في الغـيـ ـط ، لتـشـقى بالحـرث والإرواء ؟
لست إلا عـجـلا تردد في الـغـيـ ـط ، وشـيـئـا من أتفـه الأشـيـاء
لا لـصـون ، ولا لعـون ، تُرجَّى بل للغـو ، يا سـيـد الـفـصـحـاء !
لـم تـزل حـامـل اللـواء وداعي عـرقـه الحي فـي أبي الزهـراء
قـلمي ! إن بـلـغـت غـايتـك اليـو م ، فـحـاذر ضـلالـة الأدعـيـاء
قلـمي ! عـشـت كـوكـبـا يرسلُ النو رَ ، ويعلـي هـداية الأنبـيـاء
رُبّ طاغٍ عـتـا ، فـسـاء مـصـيـرا حـيـثـمـا ازداد وهمـه في النجـاء

وبعـــد :

فلن أزعم أنني بلغت ما أريد من خلال هذه النظرات العابرات ، وشعر شاعر فـحل ، ولا أدعي أنني أرضيت نـفسي .. بهـذه الوقفـات السـريعة ، ولا أرضـيت الشـاعـر الطمـوح ونفـسه المتـطلعـة إلى عظائم الأمـور ، ولا أرضـيت منظمي هذا المهرجان . وحسبي أنني أخذت بزمام رؤية ، دأبها التطلع إلى جمال الأدب وينعه، لأتزود منه بلغة نفسي .. فتتوق إلى الذي هو خير . وأعتذر كذلك ، أني لم أتوقف مع أبيات هذه القصيدة الأخيـرة الرائعة الطويلة « أبيس » ، لأقول ما ينبغي أن يقال فيها ، وإن كانت هي تتحدث عن نفسها ، وهذه الرائعة .. أكبر الظن أنها في غنى عن تأملاتي ، لأنهـا تفصح عن نفـسها ، وإعـادة القول أو بعض القـول ، ربما كان حشـوا لا غنىً فيه ، إذن فعـرض القصيدة .. يـغني ويجزي ، لا سيمـا حين تعرض على أولي الرأي من الأدباء والمـثقـفين ، لأن لهم قـراءاتهـم المختلفـة .. من زواياهـم المختلفة كذلك .

وإنا جمـيعـا لنبارك هذا الملتـقى ، في هذا المؤتمر ، وإن كان لي ولأمـثالي من رجاء أن يتـجدد ، ليس كل ربع قرن مـرة ، ولكن كل خمس سنوات على الأكـثر مـرة ، ولو كان لي من الأمـر شيء ، لدعـوت إلى انعقـاده .. كل عامين مـرة والله نسأل السداد والعون .